(١)

الإسلام عمل وسلوك
نماذج من حياةالتابعين

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد :

فإنّ الله (عز وجل) يصطفي من عباده من يعمل لدينه ويخلص له ولرسالته ، ولقد أخبر النبي (صلى الله عليهم) أن خيار هذه الأمة هم أصحابه (رضي الله عنهم)، ثم التابعون ، وتابعوهم ، فعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) ، قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ...) ، فهؤلاء هم الصفوة الذين وصفوا بالخيرية ، وحملوا أمانة العلم ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ ، ولقد امتدحهم الله (عز وجل) وجمعهم مع صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ووصفهم بالإحسان ، ورضي عنهم ، ووعدهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فقال تعالى : {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .

والتابعون هم أقرب الناس زمانا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فالتابعون هم الجيل التالي لجيل الصحابة ، وأتباع التابعين هم الجيل التالي لجيل التابعين (رضي الله عنهم أجمعين) .

ولله در الإمام البوصيري في قوله :

وكلُّهُم مِنْ رسولِ اللهِ مُقْتَبِسٌ *** غرفًا مِنَ البَحرِ أو رَشْفًا مِنَ الدِيَمِ

وقد صحب التابعون الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) ، وتعلموا على أيديهم ، وشهد لهم الصحابة (رضي الله عنهم) بالفضل و العلم ؛ ومن ذلك شهادة ابن عمر (رضي الله عنه) لسعيد بن المسيب (رضي الله عنه) بقوله : " هو والله أحد المفتين"، وكان يقول : " سَلُوا سعيد بن المسيب ؛ فإنه قد جالس الصالحين " ، وكان سعيد بن المسيب (رحمه الله) يُفتي والصحابة أحياء . وكان عطاء بن أبي رباح يجلس للفتيا في مكة بعد وفاة حبر الأمة عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)، فلما قدم ابن عمر (رضي الله عنهما) مكة ، فسألوه ، فقال : أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل ، وفيكم ابن أبي رباح؟.

ولقد عُرف التابعون بصدق محبتهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ،

فقد كان الحسن البصري (رحمه الله) إذا حدَّث بحديث الجذع – وحنينه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) – بَكى ، وَقَالَ : يَا عباد الله ، الْخَشَبَة تحن إِلَى رَسُول الله (صلى الله عَلَيْهِ وَسلم) شوقا إِلَيْهِ ، فَأَنْتم أَحَق بذلك ، وَأَن تشتاقوا إِلَى لِقَائِه ، وقد سئل الإمام مالك (رحمه الله) : متى سمعت من أيوب السختياني؟ فقال : حج حجتين ، فكنت أرمقه ولا أسمع منه ، غير أنه كان إذا ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) بكى حتى أرحمه ... وكان بلغ من توقيرهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) أنهم لا يحدثون بحديثه إلا وهم على أحسن حال وأفضل هيئة ، وقد تربى أتباعهم على ذلك ، قال أبو سلمة الخزاعي (رحمه الله) : كان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج ليحدث توضأ وضوءه للصلاة ، ولبس أحسن ثيابه ، ومشط لحيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : أوقر به حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ومن التابعين من ذكرهم النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) بالخير ، كأُوَيْس الْقَرَنِيّ الذي كان بارًّا بأمه ، وذكره النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه ، وأخبرهم أنه

مستجاب الدعوة ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) ، قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يَقُولُ : (إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ ، وَلَهُ وَالِدَةٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ) ، فلما أقبل أهل اليمن جعل عمر (رضي الله عنه) يبحث عنه ، حتى قابله ، وقال له : استغفر لي ، قال : أنت حق أن تستغفر لي ، أنت صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلم يزل به حتى استغفر له ...

ولقد تعلم التابعون (رحمهم الله) من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهم الدين فهما صحيحًا ، فهذا الإمام الحسن البصري (رحمه الله) – وهو من كبار التابعين – عندما سئل : أمؤمن أنت؟ قال : " الإيمان إيمانان ؛ فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والجنة ، والبعث ، والحساب ، أنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله (عز وجل) : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} ، فو الله ما أدري أنا منهم أم لا ، قال البيهقي معلقًا : فلم يتوقف الحسن في أصل إيمانه في الحال ، وإنما توقف في كماله الذي وعد الله (عز وجل) أهله بالجنة ، في قوله تعالى : {لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} .

كما أنهم فقهوا التيسير ، وطبقوه في حياتهم ، يقول سفيان الثوري (رحمه الله): إنّما العلم عندنا الرخصة من ثقة ، فأما التشديد فيُحسنه كل أحد ، وقال الأزرق بن قيس : كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء ، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلى وخلى فرسه ، فانطلقت الفرس فترك صلاته ، وتبعها حتى أدركها ، فأخذها ، ثم جاء فقضى صلاته ، وفينا رجل له رأي ، فأقبل يقول : انظروا إلى هذا الشيخ ، ترك صلاته من أجل فرس ! فأقبل ، فقال : ما عنفني أحد منذ فارقت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقال : إن منزلي متراخ ، فلو صليت وتركت فرسي ، لم

آتِ أهلي إلى الليل ، وقد تعلم ذلك من النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، وهو القائل (صلى الله عليه وسلم) : (يَسِّروا ، ولا تُعسّروا، وَبشِّروا ، ولا تُنفّروا) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُوْنُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) .

كما طبقوا الرحمة والتكافل والشعور بالآخرين في حياتهم تطبيقا عمليًّا ، فهذا عليّ بن الحسين بن علي (رضي الله عنه) كان ينفق على كثير من الفقراء سرًا ، لا يدري به أحد ، فلما مات ، فقدوا من يعولهم ، وعندما غسلوه وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين ، فعرف أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، وقيل: إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة .

ولم يقتصر التراحم والتكافل على المسلمين فقط ، وإنما شمل المسلمين وغيرهم ، فهذا سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يكتب إلى عامله في البصرة قائلا : "وَانْظُرْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، قَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ ، فَأَجْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ " ، وهو مقتد في ذلك بما كان من سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما رأى رجلًا مُسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فقال : والله ما أنصفنا هذا إن أكلنا شبيبته وضيعناه في شيبته، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه ، وكذلك سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) في صلحه لأهل الحيرة : "وجعلتُ لهم أيُّما شيخ ضعُف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيًّا فافتقر ، عِيل من بيت مال المسلمين" ، وكلهم في ذلك يقتدي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ويطبق صحيح الدين ، قال تعالى : {لا ينهاكم اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} .

ولم تتوقف تلك الرحمة على الإنسان فحسب ، بل شملت الحيوان والطير ، وغير ذلك، فقد كتب عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) إلى عامله بمصر يوصيه بالرحمة بالإبل ، قائلا : إنَّه بلغني أنَّ بمصر إبلًا نقالات ، يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فلا أعرفنَّ أنَّه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .

كما أوصى بالرحمة بها فلا تهان ، ولا تضرب، وقد تعلم ذلك من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : حينما أوصى صاحب جمل بجمله قائلا : (أَفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا ، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ ، وَتُدْئِبُهُ) .

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

***

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارِكْ عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إنَّ من أعظم ما تميز به التابعون : **السماحة مع الناس** ، **وخفض الجناح لهم** ، فكانوا أكثر الناس سماحة ولينًا في تعاملهم مع الناس ، فعن قتادة ، قال : دخلنا على الحسن البصري ، وهو نائم ، وعند رأسه سلة ، فجذبناها ، فإذا خبز وفاكهة ، وجعلنا نأكل ، فانتبه ، فرآنا ، فسره ، فتبسم وهو يقرأ قوله تعالى : {أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ} ، وعن جرير بن حازم (رضي الله عنه) ، قال : كنا عند الحسن ، وقد انتصف النهار ، فقال ابنه : خفوا عن الشيخ ، فإنكم قد شققتم عليه ، فإنه لم يطعم طعامًا ولا شرابًا ، قال : دعهم ، فو الله ما شيء أقر لعيني من رؤيتهم .

وفي هذا ما فيه **من إنكار الذات** ، **ومعرفة قدر العلم** ، **واحترامه** ، **وبيان قدر دين الله تعالى في النفوس** ، ولعل ذلك يكون درسًا لمن يتصدر للناس ليتحدث في دين

الله بلا علم ، فيضل ويضل ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا ، فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) .

لقد كان التابعون قدوة طيبة لمن جاء بعدهم من الأئمة ، فهذا الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) – وهو من تابعي التابعين – قد طلب منه أبو جعفر المنصور (رحمه الله) اعتماد كتابه " الموطأ " في مختلف البلاد الإسلامية ، قائلا : إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها – يعني الموطأ– فتُنْسَخُ نُسَخًا ، ثم أبعث إلى كل مِصْرٍ من أمْصَار المسلمين منها بنسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ، لا يتعدونه إلى غيره ، وَيَدَعُوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحْدَثِ، فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم ، فقال الإمام مالك : يا أمير المؤمنين ، لا تفعل هذا ، إن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم منهم بما سبق إليهم ، وعملوا به ، ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم ، وإنَّ ردَّهُمْ عَمَّا اعتقدوه تشديد ، فَدَعِ الناس وما هم عليه ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ، فقال : لعمري! لو طاوعتني على ذلك لأمرت به .

ومن كريم التواضع ، وعظيم الفهم والفقه ، ما كان من الإمام الشافعي (رضي الله عنه) حين اختلف معه تلميذه يونس بن عبد الأعلى ، وقام يونس غاضبًا ، فلما أقبل الليل ، سمع يونس طرقًا على باب منزله ، فقال : من بالباب ؟ قال : محمد بن إدريس ، فقال يونس : فتفكرت في كل من كان اسمه محمد بن إدريس إلا الشافعي، قال : فلما فتحت الباب ، فوجئت به ، فقال الشافعي: يا يونس ، تجمعنا مئات المسائل ، وتفرقنا مسألة ؟! يا يونس ، لا تحاول الانتصار في كل الاختلافات ، فأحيانًا كسب القلوب أولى من كسب المواقف ، يا يونس ، لا تهدم الجسور التي بنيتها

وعبرتها ، فربما تحتاجها للعودة يومًا ما ، اكره الخطأ دائمًا ، ولكن لا تكره المُخطئ ، وأبغض بكل قلبك المعصية ، لكن سامح وارحم العاصي ، يا يونس ، انتقد القول ، لكن احترم القائل ، فإن مهمتنا هي أن نقضي على المرض ، لا على المرضى .

ورحم الله الشافعي في قوله :

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم * * * لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَه

وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي * * * وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَه

وسار على ذلك علماؤنا الكرام ، فكانوا خير قدوة لنا في حمل أمانة دين الله تعالى وفهمه فهما صحيحا ، والتخلق بأخلاقه ، وحسن بلاغه للناس ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولَئِكَ الذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأولَئِكَ هُمْ أولُو الأَلبَابِ .